

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا  
حديث أيامك ما أطاقوا  
لما اشتكى تذبذب في أهوائهم  
توجس للسمع واستراق  
تطاولوا لاعدمت أمالهم  
قصر اولاجانها الاخفاق  
توهموها غشقة انجلت  
والصفو من مشربهم غساق  
لكن ألم ألم بدم  
خذ السهال نعلها طراق  
أو كان مديده إلى يد  
يجري بها الأجمال والأرزاق  
فالنصل على صداداً وتحتته  
حد الحسام وسنار قراق  
رمى الصليب بصليب الرأي عن  
زوراء أوهى نزعها الاغراق  
ونوم من خلف الخليج سهر  
والعيش في فرنجية سيقاق  
ماتوا فلا همس ولا اشارة  
خوف هموس زاره ارهقاق  
لا سلبت منك الليالي ما كست  
ولا عرت جدتك الاخلاق

## فصل

### في وفاة زكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لثلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لا قى الحمام ولم أك من مستيقنا  
أن الحمام سيئلى بحمام

فأضحى وقد خاناه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأى نجم للاسلام أفل، وأى ناصر للايان رحل، وأى بحر ندى نضب، وأى بدر مكارم غاب، وأى أسد افترس، ولم ينجه قلة<sup>(٤٧)</sup> حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصابه بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لا ينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب علي أمير المؤمنين رضي الله عنه. (٤٨)

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نغم على كبير أرواده، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبته كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لا يرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم. وذكر الحديث (٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلاً وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبتتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأنثى، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم.

قلت: ومن عجيب ما حكى أنه لما اشتد حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابها فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وأخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأى شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي أنتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشد حصاراً ونصب عليه عدّة مجانيق، وقال يوماً لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن؟ فقال له حسان: أنتظر سهماً من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لفته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طي في كتاب السيرة الصلاحية.

## فصل

### في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانت من أحسن سير الملوك، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف.

قال ابن الاثير: حدثني والذي قال: قدم الشهيد إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين، وكان زمن الشتاء فنزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملة أمراءه الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي، وهو من أكابر أمراءه ومن ذوي الرأي عنده، فدخل الديبسي البلد ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيد، وهو راكب فسأل عن حاله فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والديبسي إلى جانبه ليس فوقه أحد فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الديبسي نظر مغضب، ولم يكلمه كلمة واحدة فتأخر القهقري ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين، قال: فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها، ونصبوا الخيام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنا فأني حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الاقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت

الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدّوا عليهم وغصبواهم أملاكهم، ثم ذكر ما تجدد في أيامه من عمارة البلاد لاسيما بالموصل، وذلك لحسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة، وهو الذي أمر ببناء دار المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورها، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكانت الموصل أقل بلاد الله فاكهة، وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الاطراف، وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، لاسيما دركاه السلطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك، فكان يصل إليه كل يوم من عيون عده قاصدين، وكان مع اشتغاله بالأمر الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً.

وكان لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئاً.

وكان يتعهد أصحابه ويمتنحهم: سلم يوماً خشكناكة (٥٠) إلى طشت دار له، وقال: احفظ هذه فبقي نحو سنة لا يفارق الخشكناكة خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخشكناكة،

فأخرجها في منديل وقدمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظا لحصن، وأمر له بدزداريه قلعة كواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لا يمكن أحداً من خدمه من مفارقة بلاده، ويقول: إن البلاد كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة، وتطرق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج وملكهم كلما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم، فكانوا يغادون الفرنج القتال ويرأحونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستائة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره .

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإنه النهاية فيها، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحرق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها، بيت سكران وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج، ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح بلادهم ماعدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً

إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قال: وأمّا غيرته فكانت شديدة، ولاسيما على نساء الأجناد فإنّ التعرّض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلما يقيمون عند أهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرّض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت: وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وذكر حديث رجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزاً، قال: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً قال: «أو كلما انطلقنا في سبيل الله خلف رجل في عيالنا له نيب كنيب التيس على أن لا أوّتى برجل فعل ذلك إلا نكلت به» (٥١).

قال ابن الاثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دزداراً اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعرّض للحرم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيساني أن يسير مجداً ويدخل الجزيرة فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحريم ثم يصلبه، فسار الصلاح مجدداً فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد فخرج إلى لقائه، فأكرمه ودخل معه البلد وقال: المولى أتاك يسلم عليك، ويريد أن يعلي قدرك ويرفع منزلتك ويسلم إليك قلعة حلب ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهز وتحذّر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دجلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ما له فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بائة دينار أميرى ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوماً فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ما ذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصبتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعته وتقوّي عزمه فعرفّ النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد، فقال: اللّٰه اللّٰه في دمي ونفسي، فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصرة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال: وحكي لي من شدّة هيئته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوماً الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلّون والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبدلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً إن كان جندياً اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسونه، فبعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذراملك هو والده  
ر عطاء واستلابا  
من له كف تبذ الغي  
ث سحا وانسكابا  
فاتح في وجهه كل  
أمّة للنصر بابا  
ترجف الدنيا إذا حر  
ك للسير الركابا  
وتخر المشمخرا  
ت اختلالا واضطرابا  
وترى الاعداء من  
هيته ت أوي الشعابا  
وإذا ما الفحتهم نسا  
ره صاروا كبابا  
ياعماد الدين لازلا  
ست على الدين سحابا  
جاء علامن دونه  
سيفك إن ريع حجابا  
فالبس النعماء في الام  
من الذي طببت وطابا  
وأصف عيشا إن أع  
دءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين، وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتل بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفرع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذلك عماد الدين زنكي تنافرت

سعاداته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر

وأنواع دياج حوتها غنائه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة

يحمي عليها جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم

يروع الأعادي حليه ويراجمه

فلورامت الكتاب وصف شياتها

بأقلامها أدرك الوصف ناظمه

وكم معقل قدرامه بسيوفه

وشامخ حصن لم تفتته غنائه

وكانت ولاية الأرض فيها الأمره

وقد أمتتهم كتبته وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهيئة

يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظالم قوم حين يذكر عدله  
فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه  
وأصبح سلطان البلاد بسيفه  
وليس له فيها نظير يزاحمه  
وزاد على الأملاك بأسا وسطوة  
ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه  
فلما تناهى ملكه وجلاله  
وراعت ولاية الأرض منه لوائمه  
أتاه قضاء لا ترد سهامه  
فلم تنجحه أمواله ومغانمه  
وأدركه للحين فيها حاممه  
وحامت عليه بالمنون حوائمه  
وأضحى على ظهر الفراعن مجدلا  
صريعاً تولى ذبحه فيه خادمه  
وقد كان في الجيش اللهم مبيتته  
ومن حوله أبطاله وصوارمه  
وسمر العوالي حوله بأكفهم  
تذود الردى عنه وقد نام نائمه  
ومن دون هذا عصابة قد ترتبت  
بأسهمها يردى من الطير حائمه  
وكم رام في الأيام راحة سره  
وهمته تعلو وتقوى شكائمه  
وكم مسلك للسفر آمن سبله  
ومسرح حي لن تراع سوائمه  
وكم ثغر اسلام حواه بسيفه  
من الروم لما أدركته مراحه  
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله  
وينفذ في أقصى البلاد مراسمه

فلورقيت في كل مصر بذكره  
أراقمه ذلت هناك أراقمه  
فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالماً  
إذ ما أتاه الأمر واللّه حاتمّه  
ومن رام صفواً في الحياة فما يرى  
لسه صفو عيش والحمام يحاومه  
فإياك لا تغبط مليكاً بملكه  
ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه  
وقل للذي يبني الحصون لحفظه  
رويدك ما تبني فدهرك هادمه  
وفي مثل هذا عبرة ومواعظ  
بها يتناسى المرء ما هو عازمه

قال: وفي ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة وصل الخادم يرنقش  
القاتل لعِماد الدين زنكي وانفصل من قلعة جعبر لخوف صاحبها من  
طلبه، فوصل دمشق ميّقناً أنه قد أمن بها، ومدلاً بما فعله وظناً منه أن  
الحال على ما توهمه فقبض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبة من حفظه  
وأوصله، فأقام بها أياماً، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلت : وللحكيم أبي الحكم المغربي قصيدة في مرثية الشهيد عماد  
الدين زنكي رحمه الله منها:  
عين لا تذخري المدامع وابكبي  
واستهلي دما على فقد زنكي  
لم يهب شخصه الردى بعد أن كا  
نت له هيبة على كل تركي  
خير ملك ذي هيبة وبهاء  
وعظيم بين الانام بزرك (٥٢)  
يهب المال والجيد لمن يمه  
مه ما دحا بغير تلك كي

إن دارا تمذّننا بالرزايا  
هي عندي أحق دار بترك  
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد  
وانضحوه بزعفران ومسك  
أي فتك جرى له في الاعادي  
بعد ما استفتح الرها أي فتك  
كل خطب أتت به نوب الدهر  
ريسير في جنب مصرع زنكي  
بعد ما كاد أن تدين له الرو  
مويجوي البلاد من غير شك

## فصل فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقررت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين- يعني- محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعها الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدته على قلعة جعبر. وسير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: أعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصده إلى الموصل وقد انضوى إليه جلّ العسكر، وقد أنفذ إليّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أعرج عليه وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوها سابع ربيع الأول، ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليه، وأصعد نور الدين إليها وقرّر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمن بأنه كان السبب في توليته.

وقال ابن الأثير: لما قتل أتابك الشهيد ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود، وكان مع الشهيد واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ونسلك طريقا نبقي به الملك في أولاد صاحبنا، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، وحلف كل واحد منها لصاحبه، فركب الجمال إلى الملك فخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصلاح وقال له: إن أتابك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قولها وظنه حقاً، وقرّر بهما طمعا أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه، وأرسل إلى زين الدين بالموصل يعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي وهو ولد عماد الدين زنكي الأكبر وإحضاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فملكها وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إن من الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكك نور

الدين بحلب يدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فأمره ، فسار وبقي الجمال وحده مع الملك فأخذه وقصد الرقة، فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأراد أن يعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقاد لهم الاقطاع الجزيل والنعم الوافرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكل من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك، وأقام بالملك في الرقة عدة أيام، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل واستقرّ بها، فقوي حينئذ جنان جمال الدين ، ووصل هو والملك إلى سنجار، فأرسل إلى دزدارها وقال له لا تسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله، ولكن أرسل إلى الملك وقل له إنا تبع الموصل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحة أننا نسير إلى الموصل فإن مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونسلم البلاد، فساروا عن سنجار وكثر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك فبقي في قلعة من العسكر، فساروا إلى مدينة بلد، وعبر الملك دجلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الديبسي إلى الملك في عسكر وهو في نفر يسير فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الدين وأقر زين الدين على ما كان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين فحلف له وأقره على البلاد وأرسل له الخلع، وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفراً وحضراً وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه، فلما خوطب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابن الاثير: فانظروا إلى جمال الدين وحسن عهده وكمال مروءته

ورعايته لحقوق مخدمه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قتل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يرأسه ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك واللّه ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:  
أي أخيراً الملوكة أباً وجداً  
وأنفعهم حيا الغليل صَاد  
علوا وغلوا وقال الناس فيهم  
شوارد من ثناء أو أحاد  
وما اقتسموا ولا عمدوا بناهم  
بمنصبك القسيم العمادي  
وهل حلب سوى نفس شعاع  
تقسمها التماذي والتعمادي  
نفي ابن عماد الدين عنها  
شكاة فأصبحت ذات العماد  
تبخرت في كساء عدل وبنل  
مدبجة التهائم والنجاد  
وفي محرابها داود منزه  
يهذب حكمه آيات صَاد  
تجاوزت النجوم فأين تبغي  
ترقق فلا خلوت من ازدياد

## فصل فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخدولين

قال ابن طي: في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكية وقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسماً أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمينين، فقتل وسبى عالماً عظيماً وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير: لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك، وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً ومملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر، فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر بن الدايه حتى ولاه جميع أموره  
وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الرئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكي بمعين الدين أنر  
شرع في التأهب والاستعداد لقصد بعلبك، وانتهاز الفرصة فيها بآلات  
الحرب والمنجنقات، فنزل عليها وضايقها ولم يمض إلا أيام قلائل حتى  
قل الماء فيها قلة دعتهم إلى النزول على حكمه، وكان الوالي بها ذا حزم  
وعقل ومعرفة بالأمور، فاشتراط ما قام له به من اقطاع وغيره، وسلم  
البلاد والقلعة إليه، ووفى له بما قرر الأمر عليه، وتسلم ما فيه من غلة  
وآلة في أيام من جمادى الأولى من السنة، وراسل معين الدين الوالي  
بحمص وتقررت بينه وبينه مهادنة وموادعة تعودان بصلاح الأحوال  
وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلة فيما بينه وبين صلاح الدين بحماه وتقرر  
بينهما مثل ذلك، ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بعلبك  
وترتيب من رتبته لحفظها والاقامة فيها.

قال: ووردت الأخبار في أيام من جمادى الآخرة من السنة بأن  
جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة  
من النصارى المقيمين فيها فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من  
المسلمين، فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه  
من التركمان وغيرهم، في زهاء عشرة آلاف فارس ووقفت الدواب في  
الطرق من شدة السير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه  
فيه فهجموا عليهم، ووقع السيف فيهم، وقتل من أرمن الرها والنصارى  
من قتل، وانهمز إلى برج يقال له برج الماء فحصل فيه ابن جوسلين في  
تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في  
النقب عليهم حتى تعرقب البرج فانهمز ابن جوسلين في الخفية من  
أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كل من ظفر به من نصارى الرها،  
واستخلص من كان فيه أسيرا من المسلمين ونهب منها شيء كثير من

المال والاثاث والسبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف.

وقال ابن الاثير: لما قتل زنكي كان جوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرها في ولايته غرب الفرات في تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الرها، وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك، فسار في عسكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين فقاتلهم وجدّ في قتالهم، فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذ بحلب فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلا القليل، ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهز العساكر إلى الرها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قال: ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري فحملن إلى داره، ودخل لينظر اليهنّ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر باعادة السبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كان الآن أرسل إليّ نور الدين سهمي من الغنيمة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الدين وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أولها:

أما أن يزهق الباطل  
وأن يتجزز العبد الماطل

إلى كم يغيب ملوك الضلال  
سيف باعنا قها كافل  
فلا تحفلن بصوت الذئب  
بوقد زأرا الأسد الباسل  
وهل يمنع الدين الافتى  
يصول انتقاما فيستاصل  
أباجعفر أشرق دولته  
أضياء لها بدرك الكامل  
فاما نصبت لرفع اسمها  
فانكما الفعل والقاعل  
ليهنك ما افرج النصر عن  
سه وماناله الملك العادل  
فقل للحقاق الطريق الطيرى  
فق قد دلف المقرم البازل  
وجاهد في الله حق الجها  
دمحتسب بالعلى قافل  
وهل يمنع السور من طالع  
يشايعه القدر النازل  
فان يك فتح الرهالجة  
فساحلها القدس والساحل  
فهل علمت علم تلك الديا  
رأن المقيم بهاراحل  
أرى القمص يأمل فوت الرما  
ح ولا بد أن يضرب الشائل  
يقوي معاقله جاهدا  
وهل عاقل بعده اعاقل  
وكيف بضبط بواقى الجها  
ت لمن فات حسبه الحاصل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:  
ملك ما أذل بالفتح أرضا  
قط إلا أعزها اغلاقه  
والوهافي الرها أزجى إليها  
عارضاشيب الدجى ابراقه  
جأرت جأرة إليه فحلى  
عطلامن اعناقها اعناقه  
تلك بكر الفتوح فالشام منها  
شامه والعراق بعد عراقه  
أين كان الملوك عن وجهها الطل  
قيرينا اضاعة اطلاقه  
سنة سنهأبوه بكلب الرو  
م لما أظلمه اره افاقه  
خافقا قلبه إلى أمل عا  
جله دون نيله إخفااقه  
قسمت راية المواضي القسيم  
سات وابتز من لهاه عراقه  
وكذا أنت يابنه ما عدا من  
خلقه فيك خصله خلاقه  
وكفى البحر أنه ابن سحاب  
ما ونى سحبه ولا اصعاقه  
لم يمت من سدوت ثلمته يا  
من على الدين كظه اشفاقه  
كلما طن ذكره امانه في السم  
مع تكافي النافقاء نفاقه  
وجهاد عن حوزة الدين لم يأ  
ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنورالدين روض كل محل  
من الدنيا وجد كل بال  
أقام على ثنية كل خوف  
سهاد ابات يكل كل كال  
وصوب عدله في كل أوب  
فعوض عاطل منه بحال  
ينكس رأيه رأي المحامي  
ويقتل خوفه قبل القتال  
لقد أحصدت لاسلام عزا  
يفوت سنامه يد كل قال  
وأصبحت العواصم ملحفات  
عصا ما غير متكث الحبال

## فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة  
مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد لله رب العالمين

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين البيساني،  
وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة  
عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان حماه  
الله قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده  
المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غير مستوجبين لشهادة، ولامستحقين  
لسماع القول، فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن  
لا يسمع قول شاهد، ولا يتقدم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلا من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس: عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت: وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الرئيس أبويعلی: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخييل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولاً.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدد المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

### ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهمز الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولا تقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لها مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:  
أي شأن أدركت يانورددين الـ  
\_\_\_\_\_له أعيسى على الملوك لحاقه

نطق الحاسدون بالعجز عن ملـ  
ك محلى بالنيرات نطـاقه  
غض أبصارهم لحاق جواد  
ليس إلا إلى المعالي سباقه  
سل بصيراكم أعتقت يوم بصرى  
من أسارى الموت الزؤام عتاقه  
كم عرام على العريمة شبت  
ضاق منه على الصليب خنـاقه  
ولكم هبـوة بهاب واختيـ  
ها لها صكت الأسارى رباقه  
بسط الذل فوق بسطة باسو  
طا ولكن طواه عنه ارتفاقه

وفي هذه السنة ولد ببعليك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن  
أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبو يعلى : وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأول توفي الفقيه  
شيخ الاسلام أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي المصيصي  
بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم  
يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخرة تقررت ولاية حصن صرخد للأمر مجاهد  
الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل  
فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير  
والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال وهو مستهل نيسان أظلم الجو  
ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً  
بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظرين إليها كصفرة الورد، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكل ما ينظر إليه من حيوان وجماد ونبات، ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهذات المزعجة والرجفات المفزعة ما ارتاع لها الشيب والشبان فكيف الولدان والنسوان، وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدره الله تعالى، وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أرتاح بالسيف وحصن بارة وبصرفوث وكفر لاثا، وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم، فلما رأوا من نور الدين هذا الجدّ علموا أنّ ما أملوه بعيد.

## فصل

### في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم: الألمان والفرنش وجماعة من كبارهم في العدد الذي لا يحصر لقصد بلاد الاسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلمهم: النفير النفير إليها والإسراع نحوها، وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حماتها والحفظة لها، ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى بحيث يقال إن عدتهم ألف ألف من الرجالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك، وغلبوا على أعمال قسطنطينية واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم، وحين شاع خبرهم وأشتهر أمرهم شرعت ولاية الأعمال

المصاوبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنيتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

### ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسةائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلقت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا، وودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا، فقصدوا ناحية المزة فخيّموا عليها لقربهم من الماء، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأول، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيّموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتباع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

## فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال: بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما الله تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهتّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياح لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وخرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثنى عن زيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تنهياً الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتب قد نفذت إلى ولاية الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكروهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء، وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحماتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلا صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضباع وجعلوا يقصدونهم في المسالك، وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستتصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولا حصر يلحقه بحيث لها أرايح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودية في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فله الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قرية من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولايشك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جدّه طغتكين، وهو معين الدين أنز، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر، وكان عاقلا دينا خيراً أحسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم، وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق، وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً، فرأى معين الدين فقصده وسلم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعت واشترى فلا نقيه ولا نستقيه، يعني قول الله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (٥٣) الآية وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنج وتقدموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردهم عنه، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدة الأمر، فجمع سيف الدين عساكره وسار مجداً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعني كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة والعياذ بالله علينا لا يسلم منا أحد لبعده بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أتق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصره لنا على الفرنج أنني لاأخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها، وأعود إلى بلادي، فهاطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج، فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهددهم ويعلمهم أنه علي قصدهم إن لم يرحلوا، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعهم من العساكر مالا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا والاسلمت البلد إليه وحينئذ لاتطمعون في السلامة منه، وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء في دمشق لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الالمان عن دمشق، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه واجتمعوا بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق فرحل ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.





ردّ الامان بكل ندب باسل  
ومن الجياد بكل نهد أجرد  
ومن السيوف بكل غضب أبيض  
زمن العجاج بكل نقع أسود  
حتى لوى الاسلام تحت لوائه  
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك  
بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في  
أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن  
مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم  
ومال اعداء مجير الدين مقتسم  
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّ  
سنت العباد فأنت الحل والحرام  
وجئت بالخيّل من أقصى مرابطها  
معاقدا الحزم في أوساطها الحزم  
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا  
كالليل يلبثهم الدنياله ظلم  
وأقبلوا إلا من الاقبال في عدد  
يؤود حاسبه والاعياء والسأم  
أجريت بحرام من الماذي معتكرا  
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم  
وسست جنّدك والرحمن يكلؤه  
سياسة ما يعفي أثره اندم  
وقفت في الجيش والاعلام خافقة  
بالنصر كل قناة فوقها علم  
يحوطك الله صوناعن عيونهم  
والله يعصم من بالله معتصم

حتى إذا بدت الآراء ضاحكة  
وأقبلت أوجه الأقبال تبسم  
اتبعت جنّ سراياهم مضمرة  
فيهانجوم إذا جدّ الوغى رجوا  
والنصر دان وخيل الله مقبلة  
ترجو الشهادة في الهيجاء تغتم  
صاب الغمام عليهم والسهام معا  
فمادروا أيها الهطالة القديم  
سروا ينتهبوا الأعمار فانتهبوا  
قتلا ويغتموا الأموال فاغتموا  
وأقبلت خيلنا تردى بخيلهم  
مجنوبة وعلى أرمحنا القمم  
وأدبر الملك الطاغى يززعزه  
حرّ الاسنة وهو البارد الشيم  
وافواد مشق فظنوا انها جادة  
ففارقوها وفي أيديهم العدم  
وأيقنوا مع ضياء الصبح أنهم  
إن لم يزولوا سراعا زالت الخيم  
فغادروا أكثر القربان وانجلفوا  
وخلفوا أكبر الصبيان وانهمزوا  
مستسلمين لأيدي المسلمين وقد  
أغرى الفنا بتماذي خطفهم منهم  
لا يملك الجسم دمعاً عن مقاتله  
كانه حين يغشاه الردى صنم  
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت  
عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم

## فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجديين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوا بأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا بأسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معها، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدة من الحصون والمعازل الأفرنجية وبعدة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكره وأثقاله وكراعه ما أوجبته الاقدار النازلة، وانهمز بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه إلا النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلب أياماً بحيث جدد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبي طي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الداية عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومربّه نو الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا؟ فقال: ياخوند ايش نفع نحن إنما ينفع مجد الدين أبو بكر فهو صاحب الأمر، فاستدرك نور الدين ذلك وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتل في هذه الكسرة شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر، وقيل في كسرة البقيعة.

قلت: وهو والد عز الدين فرخشاه وتقي الدين عمر والست عذراً المنسوب إليها العذراوية داخل باب النصر بدمشق، وقبره الآن بالترتبة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم الله.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمت اعتذاراً عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنه من ماء يغر إن فرّ إلا  
شابات ذاد عنها انذلاقه  
كان فيها ليث العرين حمى الأ  
شبال منه غضبان كالنار ماقه  
وشيبه النبي يوم حنين  
إذ تلافأ أدواءهم درياقه

- ٧٦٥١ -

وهي الحرب فحلها بحسن الك  
—رة إن عرض بأسه لانياقه

## فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشد قتال، ثم أنزل الله نصرة على المسلمين، وانهمزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الواقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهـاجـة

وطالع الدولـة مسعود

وصارم الاسـلام لايشـني

إلا وشـلـو الكفـر مـقـدود

مناقب لم تك مـوجـودة

إلا ونور الـدين مـوجـود

مظفـر في درعـه ضيغـم

عليه تـاج المـلك مـعـود

نال المـعالي مـالكـا حـاكما

فـهـو سـليمان وداود

ترتشف الأفـواه أسـيافـه

إن رضـاب العـز مـورود

وكم لـه مـن وقـعة يـومها

عند مـلـوك الشـرك مـشـود

والقـوم إمامـه رق صـرعة

أومـوثق بـالقـد مـشـودود

حتى إذا عـادوا إلى مـثلها

قالت لهم هـيـتـه عـودوا

طالب بشار ضمـتـه الطـبي

فكل ما يـضمـن مـردود

والكرو والفرس سجال الوغى  
فطاردا رطورا ومطروود  
ولإنما الافرنج من بغيتها  
عادوا وقت دعادها هود  
قد حصحص الحق فما جاحد  
في قلبه بأسك مجحود  
فكل مصر بك مستفتح  
وكل ثغربك مسدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد  
كسر الفرنج على يغرا، وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج  
هزمت المسلمين أولا بهذا الموضع أولها:  
تفني بضمانها البيوض الحداد  
وتقضي دينها السمير الصعاد  
وتدرك ثارها من كل باغ  
فوارس من عزائمها الجلاد  
ويغشى حومة الهيجاهام  
يشد بضبعه السبع الشداد  
أظنوا أن نار الحرب تجبو  
ونور الدين في يده الزناد  
وجندك الصقور على صقور  
إذا انقضوا على الأبطال صادوا  
إذا اخفوا ومكيدتهم أخافوا  
وإن أبعدوا وعداتهم أبعدوا  
ونصرة دولة حامية عنها  
وهل يخشى وأنست لها عماد  
وإن تتلى القوافي ما تلته  
بإنسب ما يوتنها اسناد

جرت بالنصر أقلام العوالي  
وليس سوى النجيع لها مداد  
وطالت أروس الأعلاج خصبا  
فنادى السيف قد وقع الحصاد  
أحطت بهم فكان القتل صبرا  
ولا طعن هناك ولا طراد  
ولابرنس فوق الرمح رأس  
توسد والسنان له وساد  
ترجل للسلام ففرسوه  
وليس سوى القناة له جواد  
غضيب المقتين ولا نعاس  
وغايرها وليس به سهاد  
فسر واستوعب الدنيا فتوحا  
فلا هضب هناك ولا وهاد  
وزربيني الوغى مثوى حبيب (٥٦)  
فما عن باب مسلمه ذياد  
ولا في باب فارس غير نكل  
بفارسها يضيء بها الحداد  
لأنطاكية يجمي ذراها  
وقد دانت لسطوتك البلاد  
واذعنت الممالك واستجابت  
مليئة لدعوتك العباد  
قلت: ووقعة إنب هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها  
وسياتي ذكرها قريبا إن شاء الله تعالى.

## فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين ابن أتابك أمر بإبطال حي على خير العمل في أواخر تأذين الغداة، والتظاهر بسب الصحابة، وانكر ذلك إنكارا شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة بحلب، وعظم هذا الأمر على الاسماعيلية وأهل التشيع وضاعت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهبة المحذورة.

قلت: وأنشده ابن منير في رمضان:  
فداك من صام ومن أفطرا  
ومن سعى سعيك أو قصر  
ومالورى أهلا فتدي بهم  
وهل يوازي عرض جوهرا  
عدل تساوى تحت أكنافه  
مطافيل العين واسد الشرى  
يانور دين الله كم حادث  
دجى وأسفرت له فانسرى  
وكم حمى للشرك لا يهتدي الـ  
وهم له غادرتة مجزرا  
ياملك العصر الذي صدره  
افسح من أقطارها مصدرا  
وابن الذي طاول أفلاكها  
فلم يجد من فوقه مظهرا  
من اقرب تكسر كسرى كما  
تقصر عن إدراكه اقيصرا

مَاعَام فِي أَوْصَافِهَا شَاعِر  
إِلَّا رَأَى أَوْصَافَهَا شَعْرًا  
لِلَّهِ أَصْلَ أَنْتَ فَرَعٌ لَهُ  
مَا أَطِيبَ الْمَجْنَى وَمَا أَطْهَرَ  
مَا حَلَبَ الْبَيْضَاءَ مَذْصِثَهَا  
إِلَّا حَرَامٌ مِثْلُ أُمِّ الْقُرَى  
شَيْدَتْ فِي مَعْمُورٍ أَرْجَائِهَا  
لِكُلِّ بَاغِيٍّ عَمْرَهُ مَشْعَرًا  
فَأَصْبَحَ الشَّادِي إِذَا ثَوَّبَ الْـ  
سَدَاعِي لِهَلْ هَلْ أَوْ كَبْرًا  
لَا عَدَمَ الْإِسْلَامِ مِنْ كَفِّهِ  
كَهْفٍ لِمَنْ أَرَهَقَ أَوْ أَحْصَرَ  
كَأَنَّهَا سَاحَتُهُ جَنَّةٌ  
أَجْرَتْ بِهَارِاحَتِهِ كَوِثْرًا  
تَصْرَمُ الشَّهْرَ الَّذِي كُنْتَ فِي  
أَوْقَاتِهِ مِنْ قَدْرِهِ أَشْهَرًا  
جَهَادِ لَيْلٍ فِي نَهَارِ غَزَا  
إِذْ كُنْتَ فِيهِ الْأَصْبَرَ الْأَشْكَرًا  
أَصْدَقَ مَا يَرشِفُهُ سَامِعٌ  
مَا هَزَمَ مِنْ أَوْصَافِكَ الْمُنْبِرَا  
أَبْقَاكَ لِلدُّنْيَا وَاللِّدِينِ مِنْ  
خَلَاكَ فِي لَيْلِهِمَا نِيرَا  
حَتَّى تَرَى عَيْسَى مِنَ الْقُدْسِ قَدْ  
نَجَا إِلَى سَيْفِكَ مُسْتَنْصِرَا

قال أبو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغراضهم والخوض في قضايا لا حاجة لها من المذاهب ما أوجب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد، وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

## ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسة

فجددت المهادنة في المحرم مدة سنتين، وأنفذ نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكره إلى ظاهر حلب للقاءه والحاجة ماسة إلى معاضدته، فندب معين الدين مجاهد الدين بزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد على حشد الفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من أخبر ببوارهم، وتعجيل دمارهم، وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتباع والسواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإتب وهم في نحو أربعمئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم ووجد اللعين البرنس مقدّمهم صريعاً بين حماته وأبطاله، فعرف وقطع رأسه، وحمل إلى نور الدين، وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية، وشدة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلق، مع اشتهاار الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية، وقد خلت من حماها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة عددهم وحصانة بلدهم، وترددت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا الأمر لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على من يقصدهم، وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال، ثم استمهلوا فأمهلوا، ثم رتب نور الدين

بعض العسكر للاقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في بقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية وقد إنتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم، وتقرير أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمقالع، وغيرها من المغانم الجمّة، وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملة البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوف به من الشهامة والبراعة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كان آل فرنج أدركوا فلججا  
في يوم يغراونا الوامنية الظفر  
ففي الخطيم خطمت الكفر منصلتنا  
أبالمظفر بالصمصامة الذكر  
نالوا يغراها باوانتهت لنا  
على الخطيم نفوس المعشر الأشر  
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا  
قوامص الكفر في ذل وفي صغر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ريبضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاثل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضاً أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسة على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا البفتح، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد  
الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوها:

هذي العزائم لا ماتدعي القضب

وذوي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهمم اللاتي متى خطبت

تعثرت خلفها الأشعار والخطب

صافحت يا بن عماد الدين ذروتها  
براحة للمساعي دونها تعب  
ما زال جدك بيني كل شاهقة  
حتى إبتنى قبة أوتادها الشهب  
لله عزمك ما أمضى وهمك ما  
أفضى اتساعا بما ضاقت به الحقب  
ياساهد الطرف والأجفان هاجعة  
وثابت القلب والأحشاء تضطرب  
أغررت سيوفك بالافرنج راجفة  
فؤاد روميّة الكبرى لها يجب  
ضربت كبشهم منها بقاصمة  
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب  
قل للطغاة وإن صمت مسامعا  
قولاً للصم القنفا في ذكره أرب  
ما يوم إن نب والأيام دائلة  
من يوم يغربا بعيدا ولا كئيب  
أغرّكم خدعة الآمال ظنكم  
كم أسلم الجهل ظنا غرّه الكذب  
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى  
وكان دين الهدى مرضاته الغضب  
طهرت أرض الأعادي من دمائهم  
طهارة كل سيف عندها جنب  
حتى استطار شرار الزندقادحة  
فالحرب تضرّم والأجال تحتطب  
والخيل من تحت قتلاها تفرها  
قوائم خانهم الركض والخبيب  
والنقع فوق صقال البيض منعقد  
كما استقل دخان تحتته لهب

السيف هام على هام بمعركة  
لا اليبض ذو ذمّة فيها ولا اليب  
والنبيل كالوبل هطال وليس له  
سوى القسي وأيد فوقها سحب  
وللظبي ظفر حلو مذاقته  
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب  
ولأسنة عما في صدورهم  
مصادر ألقوب تلك أم قلب  
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم  
فاستسلموا وهي لانبع ولا غرب  
كذلك من لم يوق الله مهجته  
لاقى العدى والقنا في كفه قصب  
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم  
يارب حائنه منجاتها العطب  
حتى الطوارق كانت من طوارقهم  
ثارت عليهم بها من تحتها النوب  
أجسادهم في ثياب من دمائهم  
مسلوبة وكان القوم ما سلبوا  
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت  
فيما مضى نسيت أيامها العرب  
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا  
من الملوك فنور الدين محتسب  
ذو غرة ما سمت والليل معتكر  
الاتمزق عن شمس الضحى الحجب  
أفعاله كاسمه في كل حادثة  
ووجهه نائب عن وصفه اللقب  
في كل يوم لفكري من وقائعه  
شغل فكل مدحجي فيه مقتضب

من باتت الاسد أسرى في سلاسله  
هل يأسر الغلب إلا من له الغلب  
فملكوا سلب الابرنس قاتله  
وهل له غير أنطاكية سلب  
من للشقي بما لاقت فوارسه  
وإن يسائرهما من تحته قتب  
عجبت للصدرة السمراء مثمرة  
برأسه إن أثار القنعا عجب  
سما عليه سماء الماء أرهقه  
أنبوبة في صعود أصلها صبيب  
ما فارقت عذبات التاج مفرقه  
إلا وهي منه لا تاج ولا عذب  
إذا القنعا ابتغت في رأسه نفقا  
بدا الثعلبها من نحره سرب  
كنا نعدّ هي أطرافنا ظفرا  
فملكك الطبي ما ليس نحتسب  
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها  
كان تسليم هذا عندنا جرب  
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق  
كما التوى بعد رأس الحية الذنب  
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب  
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب  
وائذن لموجك في تطهير ساحله  
فإننا أننت بحرر لجه لجب  
يامن أعاد ثغور الشام ضاحكة  
من الطبي عن ثغور زانها الشنب  
مازلت تلحق عاصيها بطائعا  
حتى أقمت وأنطاكية حلب

حللت من عقلها أيدي معاقلها  
فاستجفلت وإلى مشاقك الهرب  
وأيقنت أنها تتلو مراكزها  
وكيف يثبت بيت ماله طناب  
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها  
جري الجفون امترها بارح حصب  
ومار كزت القننا إلا ومنك على  
جسر الحديد هز برغيله اشب  
فا سعد بها نلته من كل صالحة  
يا أوي إلى جنّة المأوى لها حسب  
إن لا تكن أحد الأبدال في فلک الـ  
تقوى فلا تتماهى أنك القطب  
فلو تناسب أملاك السماء بها  
لكان بينكما من عفة نسب  
هذا وهل كان في الاسلام مكرمة  
إلا شهدت وعباد الهوى غيب

وله فيه من قصيدة أخرى:

ألا لله دَرَك أي دَرَّ  
صريح جاء بالكرم الصريح  
وعسكرك الذي استولى مشيحا  
على ما بين فاميه وشيخ  
ووقعتك التي بنت العوالي  
صوادر عن قتييل أو جريح  
بإنسب يوم أبرزت المذاكي  
من النقع الغزاة في مسوح  
غداة كانا العاصي احمرارا  
من الدم عبرة الجفن القريح

وقد وافاك بالابرنس حتف  
أتيح له من القدر المتيح  
قتلت أشحهم بالنفس إذلا  
يجود بنفسه غير الشحيح  
ملأت بهم ضرائحهم فأمسوا  
وليس سوى القشاعم من ضريح  
وعدت إلى ذرا حلب حميدا  
سمو البدر من بعد الجنوح  
فإن جليت بغيرتك الليالي  
فكم لسناك من زمن مليح  
رويدك تسكن الهيجا فواقا  
بحيث تريح من تعب المريح  
فأنت وإن أرحمت الخيل وقتا  
فهمك غيرهم المستريح

قال أحمد بن منير يمدحه ، ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل  
رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:  
أقوى الضلال وأقفر عرصاته  
وعلا الهدى وتبلجت قسامته  
وانتاش دين محمد محموده  
من بعد ما علقت دما عبراته  
ردت على الاسلام عصر شبابه  
وثباته من دونه وثباته  
أرسى قواعده ومد عماده  
صعدا وشيد سورته سوراته  
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا  
اصلاته وصلاته وصلاته  
لما توارى كل خريبه وتخاذلت  
أنصاره وتقاصرت خطواته

رفعت لنور الدين نار عزيمة  
رجعت لها عن طبعها ظلما تة  
ملك مجالس لهوه شداتة  
ومشوقه بين الصفوف شداتة  
تغري بحثثة اليراع بنانته  
إن لذحثة الكؤوس لاداته  
ويروقه ثغر العدى قان دما  
لا الثغر يعبق في الماه لثاتة  
فصبوحه خمرة الطلى وغبوقه  
نطف النفوس تدره انشواته  
فتح تعممت السماء بفخوره  
وهفت على أغصانها جذباته  
سبغت على الاسلام بيض حجوله  
واختال في أوضاعها جبهاتة  
وانهل فوق الابطحين غمامه  
وسرت إلى سكينها انفحاته  
لله بلجة ليلة محصت به  
واليوم ذبح وشيه ساعاته  
حط القوامص فيه بعد قماصها  
ضرب يصلصل في الطلى صعقاته  
نبذوا السلاح لضيغم عاداته  
فرس الفوارس والقنا غاياته  
لمجرب عمريه غضباته  
لله معتصمية غزواته  
تحي الضيق صفاده اسراؤه  
وتفيض ماء شؤونها نغما تة  
بين الجبال خواضعا أعناقها  
كالذود نابت عن براه حداته

نشرت على حلب عقود بنو دهم  
حلل الريح تناسقت زهراته  
روض جناها لها مكر جواده  
واستوأرت حمالة حملاته  
متساندين على الرحال كما انثنى  
شرب أمالت هامة قهواته  
لم تنبت الأجسام قبل رماحه  
شجر أفرغ أصوله ثمراته  
فليحمد الاسلام ما جدحت له  
شربات غرس هذه مخباته  
وسقى صدا ذاك الحيا صوب الحيا  
خير الثرى ما كنت أنت نباته  
نصب السرى و مال عنه ومهدت  
لقر منصبك السرى سراته  
ما ضر هذا البدر وهو مخلق  
إن الكواكب في الذرى سراته  
في كل يوم تستطيل قناته  
فوق السماء وتعتلي درجاته  
وترى كشمس في الضحى آثاره  
مجدد أو السنة الزمان رواته  
أين الأولى مالا والطروس زخارفا  
عن نرف بحر هذه قطراته  
عذقوا بأعناق العواطل ماله  
من جواهر فأتهم فذاته  
لوفصلوا سماء بعض فتوحه  
سخرت بما افتعلوا لهم فعالاته  
تمسي قنانيه بنات قيونه  
فوق القوانس والقنايناته

صلتبان من دون الملوك تغرهما  
حركاته وتنيهما يقظاته  
فعدت بهم عن خطوه همتهم  
وسمت به عن قطوهم هماته  
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت  
زحل الرجال مع السها عزماته  
لواح للطائي غرة فتحه  
باءت بحمل تأوه بأآته  
أوهب للطبري طيب نسيمه  
لاحتش من تارينه حشواته  
صدم الصليب على صلابة عوده  
فتفرقت أيدي سبأ خشباته  
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة  
بالروح مقر ما خبت عذراته  
فانقاد في خطم المنية أنفه  
يوم الخطيم واقصرت نزواته  
ومضى يؤنّب تحت إنّب همة  
أمست زوافر غير غها زفاراته  
أسدتبوا كالعزف فجآته  
فتبوات طرف السنان شواته  
دون النجوم مغمضا ولطالما  
اغضبت وقد كرت لها الحظاته  
فجلوته تبكي الاصادق تحته  
بدم إذا ضحكت له شماته  
تمشي القنائة برأسه وهو الذي  
نظمت مدار النيرين قناته  
لوعائق العيوق يوم رفعته  
لأراك شاهدا خفضه اخبثاته

ما انقاد قبلك أنفه لخزامة  
كلا ولا همست لها هدراته  
طيان خلف السرح طسال زئيره  
نطقت سطاك له فطال صماته  
لما بدام سود رأيك فوقه  
مبيض نصرك نكست راياته  
ورأى سيفك كالصوالج طاوحت  
مثل الكريرين فقلصت كراته  
ولى وقد شربت ظباك كياته  
تحت العجاج وأسلمته حماته  
ترك الكنائس والكناس لناهب  
بالببيض نهب ما حواه عفاته  
لغلاب أروع لا يميمت عداته  
داء المطال ولا تعيش عداته  
للو حش ملقى بالعرا يقتاته  
ما كان قبل بصيده يقتاته  
اليوم ملكك القراع قلاعه  
متسنا ما استشرفت شرفاته  
وغدا تحمل لك الحلائل اسهم  
متوزعات بينهن بناته  
اوطأت أطراف السنا بك هامه  
فتقاذفت بعنيفها قذفاته  
لا زال هذا الملك يشمخ شأنه  
أبدا ويلفت في الحضيض وشاته  
ما أخطأتك يدان زمان فدونه  
من شاء فلتسع إليه هناته  
أنبت الذي تحلى الحياة حياته  
وتهب أرواح القصيده بناته

## فصل

قال ابن الاثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية، وهو للفرنج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبوها، فأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نو الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملاءه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذه ومدحه الشعراء وأكثر وا. منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنى الممالك ما اطلت منارها

وجعلت مرهفة الشفاردثارها  
وأحق من ملك البلاد وأهلها  
رؤوف تكنف عدله أقطارها  
من عام سام الخافقين وحامها  
مننا وزادهوى فخص نزارها  
مضريّة طبعت مضاربه وإن  
عدّته ذروة فارس اسوارها  
آل الرعيّة وهي تجهل آها  
وتعاف نطفتها وتكره دارها  
فأقرّ ضجعتها وأنبت نيهها  
وأساغ جرعتها وأثبت زارها  
ملك أبوسها لها فسماها  
وأجارها فعلت سهيلا جارها

نهج السبيل له فأوضع خلفه  
وشداله يمن العلى فانارها  
أنشرت يمام محمد ملّة أحمد  
من بعد ما شمل البلى اصحارها  
إن جانأت عدل السنان قوامها  
أونانأت كان الحسام جبارها  
عقلت مع العصم العواصم مذغدت  
هذي العزائم أسرها وإسارها  
وتكلفت لك ضمير انضيتها  
في صبرها أن تستردّ ضميرها  
كلاّت هواملها ورّد مطارها  
ما أريشته وثقفت أطارها  
كم حاولت من كفتيها غيرة  
غلب الأسود فقلمت أظفارها  
أنى وحامي سرحها من لوسمت  
للفلك بسطته أحبال مدارها  
في كل يوم من فتوحك سورة  
للدين يحمل سفره أسفارها  
ومطيلة قصر المنابر إن غدالها  
خطباء تنشر فوقها تقصيرها  
همم تجلّت الملووك وراءها  
بدم العثار وما اقتفت آثارها  
وعزائم تستوثر الأساد عن  
نesh الفرائس إن أحس أوارها  
أبدا تقصر طول مشرفة الذرى  
بالمشرفة أو تطيل قصارها  
فغزت أفامية فما فهمته  
كوباراً جناها الأران بوارها

أرهفت رائك فوق رائك تحتها  
فحططت من شغفاتها أعفارها  
أدركت ثارك في البغاة وكنت يا  
مختار أمة أحمد مختارها  
عارية الزمن المغير سماها  
منك المغيرة فاستردّ معارها  
زار الهزب رفقيدت عاناتها  
عصر الضلال وأسلمت أعيارها  
ضاءت نجومك فوقها ولربما  
باتت تنافتها النجوم سرارها  
أمست مع الشعري العبور وأصبحت  
شعراء تستقلي الفحول شوارها  
ولكم فرعت بمقرباتك مثلها  
تلعا وقلدت الكماة عذارها  
حتى إذا اشتملتك أشرق سورها  
عزوا وحلاها سنك سوارها  
خزّ الصليب وقد علت نغماتها  
واستوبلت صلواته تكرارها  
لما وعاه اسمع انطاكية  
سرت الوقار وكشفت أستارها  
فالיום أضحت تستذمّ مجيرها  
من جوره وغدت تذمّ جوارها  
علمت بأن ستذوق جرعة أختها  
إن زرّ أطاق القباء وزارها  
ماض إذا قرع الركاب لبلدة  
ألقت له قبل القراع أزارها  
وإذا مجانقه ركع من لصعبة الـ  
مملكة أسجدك الجدير جدارها

ملا البلاد موهاها ومهاابة  
حتى استرقت آية أحرارها  
يذكي العيون إذا أقام لعينها  
أبدا ويفضي بالظبي أبقارها  
أوما إلى رمم الندى فأعاشها  
وهما السابقة المنى فآزارها  
نبوي تشييه الفتوح كأنها  
أنصاره رجعت له أنصارها  
أحي الصرح سلامها سلمها  
وأمانات تحت عمارها عمارها  
إن سار سار وقد تقدم جيشه  
رجف يقصع في اللهبي ذعارها  
أوحل حل حبا القروم بهيبة  
سلب البدور وبيدارها أبقارها  
وإذا الملوكتنا فسوادرج العلى  
أربى بنفس أفرعته خيارها  
ونهى إذا هيضت تدل جبرها  
وسطى تذل إذا عننت جبارها  
تهدى لمحمود السجايا كاسمه  
لوز فاعلة بها لأبارها  
الفاعل الفعلات ينظم في الدجى  
بين النجوم حسودها أسرارها  
ساع سعى والسابقات وراءه  
عنقاف عصفر متناه عشارها  
كالمضرجي إذا يصرصر رائبا  
خرس البغات وهاجرت أوكارها  
عرفت لنور الدين نور وقائع  
يغشى إذا اكتحلت به أبصارها

مشهورة سطعت وقد حاولتها الـ  
أقذار عجزاً أن تشق غبارها  
للّه وجهك والوجوه كأنها  
حطت بها أوقار هبت قارها  
والبيض تخنس في الصدور صدورها  
هبرا وتكتحل الشفور شفارها  
والخيل تدلج تحت أرشية القنا  
جذب المواتح غاورت أبارها  
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسها  
متمليا صدر العلى وصدارها  
في دولة للنصر فوق لوائها  
زبر تنمق في الطلى أسطارها  
فالدين مرمأة رفعت بها الصوى  
وحديقة ضمننت يدك إبارها

وله فيه من قصيدة أخرى:  
خنس الثعالب حين زجر مصحر  
ملا البلالدهما وزئيرا  
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق  
جعلت مخافته القصور قبورا  
لريب حرب لم تنزل فعلاته  
كالراء يلزم لفظها التكريرا  
أسد إذا ما عاد من ظفر بمفـ  
ترس أحداً مثلثه اظفورا  
يتناذر الأعداء منه سطوة  
ملا الزمان تغيطا وزفيرا  
عرف والنور الدين وقع وقائع  
وفيها الإسلام أمس نذورا

أبدا يظا فرك القضاء على الذي  
تبغي فترجع ظا فرامنصورا  
قوضت فانتقع الظهائر ظلمة  
وقفلت فاشتعل الديقاجرنورا  
وعلى العواصم من دفاعك عاصم  
ينشي الرشيديو ينشر المنصورا

## فصل

### في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران  
ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر لأمر أوجب ذلك ودعا إليه  
وأمعن في الأكل، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده  
فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من  
الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض في الكبد، فأوجب  
الحال عوده إلى دمشق، في محفة لمداواته فوصل، وقضى نحبه في ليلة  
الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي  
كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن واسمه  
مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة  
أسامة بن منقذ وكتب بها إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بصرى  
وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:  
كل يوم فتح مبین ونصر  
واعتلاء على الاعادي وقهر

صدق النعت فيك أنت معين الـ  
ـدين إن النعوت فال وزجر  
أنت سيف الاسلام حقا فلاكل  
غراريك أيها السيف دهر  
لم تزل تضمـر الجهـر ادمـرا  
ثم أعلنت حين أمكن جهـر  
كل ذخـر الملوك يفنى وذخـرا  
كهما الباقيان أجـر وشكر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بإبطال الفئنة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثرت دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتواء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد، وأثاروا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه واطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتألت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزائنه من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث نحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشتراط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدمين والرعاغ والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة نائرة والمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدي النهاية في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابها، وعمها النهب والاختراب، ودعت الضرورة إلى تطيب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقلة.

ذراتك والعريريا  
وكن في حزب من غلبا  
بجلق أصبحت فتن  
تجرالو ويل والحربا  
لئن تمت فواأسفا  
ولم تحزن فواعجبا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زدعلوافي المجديابن علي  
هكذا من أراد أن يتعالى  
وغدت جلق تناديك عجبا  
هكذا هكذا والافلالا

لن تبالي من بعدهم بعدو  
إنها ذاك كأن قطعاً فزالا  
قد حوى الدين يا مؤيده من  
ك هـ زبراً وديمة وهلالا  
جته في الظلام خيلاً ورجلاً  
وهيئت النفس والاموالا  
قد بلغت المراد من كل ضد  
وكفى الله المؤمنين القتالا

قال أبو يعلى التميمي: وفيها ورد الخبر من ناحية مصر بوفاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الأمر بن المستنصر في خامس جمادى الآخرة ، وولي الأمر بعد ولده الأصغر أبو منصور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولى الوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

## فصل

### في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابن الاثير: كان أتابك الشهيد، يعني زنكي، ملك دارا وبقيت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها، ثم حصر ماردين عازماً على أن يدخل ديار بكر، ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده، فتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كانت أعياداً قد حصرنا غير مرة فلم يتعدّ هو وعسكره حاصل



أتابك إن سميت في المهدي غازيا  
فسابقة معدودة في البشائر  
وفيت بها والدين قدمال روقه  
وصدقتها والكفر بادي الشعائر

وعزى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه بقصيدة تقدم  
بعضها أولها:  
هو الجذب الزالتام البـدورا

يقول فيها:  
سوى كل ماجنت الحادنا  
ت ما كنت ظلا علينا قريرا  
أسأ ن وأحسن كن الهلال  
وملأننا منك بدرا منيرا  
إذا تبج البحر أخطأته  
فلا غرو أن يتشفن الغديرا  
وأصغر بفقداننا الذاهب  
بين ما عشت ناتيک ملكا كبيرا  
وما أغمد الدهر ذاك الحسا  
م ما سأل حدك عضبا بتورا  
قسيم علاك ونعم القس  
سيم أخ شاف نورا وأعطى كثيرا  
وكان نظيرك غار الزما  
ن من أن يرى لك فيه نظيرا  
فدتك نفوس بك استوطننت  
من الأمن نورا وقد كن بتورا  
وغيرك يمهد بسط العز  
ء ويولي المسلمين سمعا وقورا

وما نقص الدهر اعدادكم  
إذا شفق قطرا وأبقى بحورا  
ولو أنصف المجد موتاكم  
لخط لهم في السماء القسورا  
حياتك أحييت رميم الرجاء  
وأعطت من الجود ظهرا ظهيرا  
بقيت معزما من الهالك  
بين توقي الردى توفى الاجورا

وللقيسراني قصيدة منها  
ما أطرق الجو حتى أشرق الأفق  
إن أغمد السيف فالصمصام يأتلق  
دون الاسى منك نور الدين في حلب  
ملك ينجلي عن وجهه الغسق  
هو الشقيق الشفيق الغيب حين ثوى  
أراق ماء الكرى من جفناك الأرق  
تلقي الاسى من لباس الصبر في جنن  
حصينة تحتها الأحشاء تحترق  
ومدة الاجل المحتوم إن خفيت  
فإن أيا من آمن دونها طرق  
وإنما نحن في مضمار حليتها  
خيل إلى غاية الأعمار تستبثق  
شأ وإذا ابتدر الأقسام غايته  
كان المؤخر فيها من له السبق  
إن كان صنوك هذا قد ثوى وذوى  
ففي مغارسك الأثمار والورق  
أو أصبحت بعده الأهواء نافرة  
أيدي سببا فعلى عليك تنفق

ما غاب من غاب عن آفاق مطلعته  
الاليفتر عن أنوارك الافق  
مادام شمسك فينا غير أفلة  
فالدين منتظم والملك متسق

## فصل

قال ابن الاثير: لما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين على توليته وتمليكه طلبا للسلامة منه، فإنه كان لين الجانب حسن الأخلاق كثير الحلم كريم الطباع، فأحضروه من داره وحلقوه لهم وحلفوا له ونزل بدار المملكة، وحلف له الأمراء والأجناد واستقر في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين، ولما ملك واستقر في الملك تزوج امرأة أخيه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكانت هذه الخاتون يحل لها ان تضع خمارها عند خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادها وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثم ذكرهم ابن الاثير في كتابه وسامهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية إلى آخر خلفاء بني أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فإنه ابن عم لها ليس بمحرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فمعاوية جد أمها، ويزيد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد أخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها،

والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق، ولكن الصواب في ذلك أن يقال كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان ابن الحكم ونسله سوى، مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محرم لها: معاوية جدّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد ابن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالأخوة والأعمام والأخوال وبني الأخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك، وغيرهم، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية، وما ذكر ابن الاثير من أمر حسام الدين، فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من أخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعاذل، وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذريته أصحاب حماه، وفرخشاه وابنه الأجد صاحب بعلبك.

## فصل

قال ابن الاثير ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقدم والد شمس الدين بن المقدم، وهو حينئذ دار سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارساً من أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهم اللبايد، فلم يعرفهم الذين بالبواب، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد كأنهم تركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه، وسار مجدداً إلى سنجار فوصلها وليس معه إلا نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدة تعبته، وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوره، وكان المقدم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها فأرسلوا إليه، فوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل، وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتاخر في الطريق فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين فخاف فوات الأمر، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده، وبذل له قلعة الهيثم فسار إليه بجنده، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل، نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذته ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً، فأعاد الجواب: إنني أنا الأكبر وأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين - فحفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهديدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا

بجندكم وكان قد هرب إليه جماعة من أجنادهم، فخافوا أن يلقوه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين الوزير، وقال: نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويهددهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه، فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن ظفرنا به طمع فينا الفرنج، ولنا بالشام حمص، وقد وصار له عندنا سنجار، فهذه أنفع لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه والرأي أن نسلم إليه حمص ونأخذ سنجار وهو في ثغر بازاء الفرنج ويتعين مساعدته، فاتفق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها لزين الدين لأن حمص كانت لأخيه ينال، وهو مقيم بها، واتفقت كلمتهم واتحدت آراؤهم، وكل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما يستغني به عن وزير ومشير وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك لأنّ عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي، فأجابه إلى ذلك فقال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة، فأمر له بها، فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت: وقرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الدين عند قدومه وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربعين وخمسةائة:

هذا الذي ولدت له الافكار  
وتمخضت فألابه الاشعار  
وجرت له خيل النهى في حلبة  
وردت وصفه وضميره المضمهر  
واتت به نذر القوا في برهه  
إن القوا في وجهه انذار  
حكمت لسيفك بالممالك عنوة  
حكما لعمري ما عليه غبار  
يا أيها الملك المطيل نجاده  
بريدين يهديه الابرار  
يا بن السيوف وهل فخرت بنسبة  
الأسبابك للجحدود فخار  
فارقت دار الملك غير مفارق  
لك من عاك بك كل أرض دار  
في عسكر تخفي كواكب ليله  
نقعا فيطلعها القنا الخطار  
جرار أذيال العجاج وراءه  
وأمامه بل جحفل جرار  
تدني لك الغايات أكبر همة  
نورية هم الملو ك كبار  
حتى ملأت الخافقين مهابة  
داننت لعظم نظامها الاقطار  
وملكت سنجارا ومامن بلدة  
إلا تمننت أنها سنجار  
وبسطت بالأموال كفاطالما  
طالت بها الأمال وهي قصار  
وجرت بأمداد الجياد شعابها  
جري السيول وماسواك قرار

وثنى الفرات إلى يديك عنانه  
والبحر مما اتصلت به الأنهار  
وملكت رجة مالك فتبرجت  
منها العينك كاعب معطار  
جاءتك في حلال الريح وحليها  
قبل الريح شقائق وبهار  
نثرت عليك هوى القلوب محبة  
وتودد لوان النجوم نثار  
فأقمت كالشمس إن نأت  
عن أفقها فلهابيه أقيار  
من كان نور الدين ثم أجنة  
ليل السرى حفت به الأنوار  
تدعو البلاد إليك ألسنة الظبي  
في جيبك الانجاد والاغوار  
حتى عمدت الدين يابن عماده  
بقنأ أستنها عليه منار  
وقفلت من أسفار جدك قادمًا  
كالصبح نمت بثغره الأسفار  
يغشى البصائر نور وجهك بعد ما  
تركت على قسماته الأبصار  
حتى عمرت بكل قلب صدره  
حيث الصدور من القلوب قفار  
إن تمس في حلب رباحك غضة  
فلهاب أنطاكية إعصار  
وغدت جبادك بالشام مقيمة  
ولها بأطراف الدروب مغار  
همم سبقت بها إلى مهج العدى  
صرف السردى ومسيره إحضار

وأرى صباح القمص كان خديعة  
فطغى وجاور ليس ثم وجار  
سأل الصنيعه غير محقوق بها  
والخير يهدم ما بنى الختار  
حتى إذا ما غبت أقدم عاثا  
أقدام من لم يبدن منه قرار  
أمضى السلاح على عدوك بغيه  
بالغدر يطعن في الوغى الغدار  
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل  
كالليل فيه من الصفيح بهار  
جند على جرد أمام صدورها  
صدر عليه من اليقين صدار  
قد بايع الاخلاص بيعه نصره  
ولكل هادي أمة أنصار  
ملك له من عدله ووفائه  
جيش به تستفتح الامصار  
وإذا للملوك ثقافت عن غاية  
وأرادها خفت به الاقدار  
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمه  
قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:

ترنح معطف الزوراء لما  
دعاك لزور سنجار لما  
وزلت الصعيذ وراء مصر  
غداة علتك في قطن الخيام  
رجاء هزتيك وتلك خوف  
ولو قد شئت ضمها قرام

بعيشك يامبيد الخيل ركضا  
حمامه من تحتك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنته بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في  
القلعة قصيدة أولها:

ارحها فها هي ألام المعالي  
لهن إلى الوغى تروق المغالي  
أما ومقيلهن بكل نقع  
يقوض بالهدى عمر الضلال  
وأسيوفك الحمر الحواشي  
منزلة متى دعيت نزال  
مواض إن سللن سللن جزما  
نفاه من الطلى لفظا للال  
لقد غلب الصليب بحر حرب  
يشيب أوارها المم الليالي  
وشمت لنصر هذا الدين بأسا  
يجرم منه كل حمى حلال  
وقايع أترعت في كل فج  
وقايع جوها دامى العزال

ومنها:

تسائل حمص عن منسي ديين  
تقاضاه لك الحجج الخوالي  
فواتت وهي أخت النجم بعدا  
ووعدا صيغ من مطل مطال  
تشامخ أنفها عزأ وشدت  
على أن لاتنال يدا ينال

فما زالت رقماك تجدد نقضها  
لما تثنيه من مرر الحبال  
إلى أن أطلق الحسنا كرها  
وآل إلى مـ لا وحة المآلي  
يصد الوجه عن شما القت  
يد الاشم ذي باع طوال  
شغلت بها يمينك والمواضي  
تكفل أن مصر الشمال  
إذا فتح القتال عليك أرضها  
أباحك أختها لاعن قتال

## فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج ييوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لا أنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع، وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأودية وزادت الأنهار وامتألت برك حوران ودارت أرحيتها، وعاد ما صنوح من الزرع والنبات طرياً ، وحشد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته، ثم رحل من منزله بالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالدين والرئيس وقال: إنني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسييت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطاني الله ، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالأفرنج على محاربتني، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا لا يرضي الله تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بدّ من المعونة من ألف فارس مزاحي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

. قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا وبينك إلا السيف، وسيوافينا من الأفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا، فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجب منه والانكار له، وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربتة في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

## ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعتة إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعادته مكرماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعادته الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استباحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدي سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما

دبر

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح

وإن شئت صلحاً عدت من حزمك الصلح

وهل أنت إلا السيف في كل حالة

فطوراله حد وطور له صفح

سقيت السردينيات حتى رددتها

ترنح من سكر فخل القنات صحو

وما كان كف العزم إلا الإشارة

إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح

وقد علم الأعداء مذبت جانحاً

إلى السلم ما تنوي بذلك وما تنحو

إذا ما دمشق ملكتك عنا هنا  
تيقن من في إيليا أنه الذبح  
متى التف نفع الجحفلين على الهدى  
فلا مهمة يحوي الضلال ولا سفح  
إذا سار نور الدين في الجيش عازما  
فقل ولا ليل الأفك قد طلع الصبح  
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها  
فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح  
صبرت فكلان الصبر غير مغبرة  
فسيق إليك الملك يسعى به النجح  
كأن القنا تجلوه وجه أمره  
ولو أمهلت بلقيس ما غرّها الصرح  
بدولتك الغراء أصبح ضدها  
بهبها وولا الحسن ما عرف القبح  
وكم من قريح القلب لوبات واردة  
موارده هذا العدل ما مسه قرح  
سخابك هذا الدهر جودا على الورى  
على أنه ما زال في طبعه شح  
وقد كان يمحو رسم كل فضيلة  
ونحن نراه اليوم بثبت ما يمحو  
بك ابتهج الالباب وانتهج الحجى  
وأثمرت الآداب واطرد المدح  
ولا ذت بك التقوى وعاذت بك العلى  
ودانت لك الدنيا وعزبك السرح  
فلا قلب الا قد تملكته هوى  
ولا صدر إلا قد جلاه لك النصح  
ومما الجود في الامم لأك الأتجارة  
فمن فاته حمد الورى فاته الربح

ولم اختصر ما قلت إلا لأنني  
اعبر عما لا يقيـوم به الشرح

## فصل

### في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن  
عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه،  
وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس،  
وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقتها، وواظب  
قتالها إلى أن سهل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غاية من المنعة  
والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل  
عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول.

قلت: وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أولها:  
فـدـتـكـ القـلـوبـ بـأـلـبـابـها  
وسـاحـ المـلـوكـ بـأـرـبـابـها  
كـتـابـ تـرـمـيـ جنـودـ الصـليـ  
بـمـنـهـا بـتـقـطـيـعـ أصـلـابـها  
إـذـا مـا اـنـثـت مـن قـراع الكـما  
ة كـسـت و فـدـهـا و شـي أسـلـابـها  
تـبرنـس مـنـهـا البرنـس الثـيـا  
بـو حـلـتـه مـن وقـع احـلـابـها  
عـشـيـة غـصـت عـلـى إنـب  
نـفـسـوس النـصـارـي بغـصـابـها  
وقـام لأـحـمـد مـمـود هـا  
بـجـذـع مـوازـن أحـزـابـها